اسم المادة الدراسية : الأدب العباسي (الشعر).

اسم المادة باللغة الانكليزية : Abbasid Literature of poetry

(المحاضرة الحادية عشرة)

عنوان المحاضرة : المديح .

التدريسي ولقبه العلمي : أ.د. محمد عويد محمد الساير

المرحلة الدراسية : الثالثة

محاضرة ١١

الأغرض الشعرية :

المديح :

إذا مضينا نتعقب من كانوا يمدحون الخلفاء العباسيين لهذا العصر وجدناهم أكثر من أن يحصوا ويستقصوا، وإنما يهمنا منهم من كانوا يقفون مدافعين عن نظريتهم فى الخلافة مناضلين عنهم خصومهم , ويلمع اسم أبى دلامة فى بلاطهم جميعا، وكانت فيه دعابة جعلتهم يتخذونه لهم نديما، ومن أوائل من استظهروا فى أشعارهم النضال عن سلطان العباسيين أبو نخيلة، وهو من مخضرمى الدولتين: الأموية العباسية فى مديح السفاح إذ يقول :

حتى إذا ما الأوصياء عسكروا ...وقام من تبر النبىّ الجوهر

أقبل بالناس الهوى المشهّر ...وصاح فى الليل نهار أنور

وواضح أنه يجعل العباسيين أوصياء على الخلافة، فليس العلويون أصحابها إنما أصحابها العباسيون الذين استخلصوا لها كما يستخلص الجوهر. وقد مدح المنصور الشاعر أبا نخيلة وقد روى له أرجوزة يغريه فيها بخلع ولى عهده عيسى بن موسى وعقد العهد لابنه محمد المهدى يقول :

ليس ولىّ عهدنا بالأسعد ...عيسى فزحلفها إلى محمّد
من عند عيسى معهدا عن معهد ...حتى تؤدّى من يد إلى يد
فناد للبيعة جمعا نحشد ...فى يومنا الحاضر هذا أو غد

ويعدّ المهدى أول خليفة فتح أبوابه على مصاريعها للشعراء، فقد مضى يجزل لهم فى العطاء ومضوا يجزلون له فى الثناء، وفيه يقول ابن الخياط، إن صح أنها له :

لمست بكفى كفّه أبتغى الغنى ...ولم أدر أن الجود من كفّه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى ...أفدت وأعدانى فأتلفت ما عندى

وممن أكثروا من مديحه مروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو دلامة وبشار وأبو العتاهية والسيد الحميرى ونصيب الأصغر والعمانى الراجز ومن مدّاحه الحسين بن مطير مولى بنى أسد، وكان يغلو فى مديحه غلوا شديدا حتى ليرفعه على البشر درجات من مثل قوله :

لو يعبد الناس يا مهدىّ أفضلهم ...ما كان فى الناس إلا أنت معبود
أضحت يمينك من جود مصوّرة ...لا بل يمينك منها صوّر الجود
لو أن من نوره مثقال خردلة ...فى السود طرّا إذن لابيضّت السود

ونرى كثيرين من الشعراء لعهده يدافعون عن حقه وحق العباسيين فى الخلافة منكرين على العلويين حقهم فيها، فهم ورثتها الشرعيون وحصونها الحقيقيون، وفى ذلك يقول ابن المولى :

وإن أمير المؤمنين ورهطه ...لأهل المعالى من لؤىّ بن غالب
أولئك أوتاد البلاد ووارثو النّ ...بىّ بأمر الحقّ غير التكاذب

ومضى فى القصيدة يذكر بلاء العباسيين فى تفويض الحكم الأموى والأخذ للعلويين بثأرهم الذى كان مهدرا وأعلن بلسان الخليفة أنه رحيم بهم شفيق عليهم لما يربطه بهم من وشائج القربى، وأن من رجع منهم عن غيه وتاب قبل منه توبته وأسدل عليه نعمه.

وكان الهادى منذ ولاية أبيه يقعد للشعراء ويمدحونه ، ومن مدّاحه أبو الشّيص والعمانى وابن مناذر وعمر بن سلمة ومروان بن أبى حفصة وسلم الخاسر وأبو نواس وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد ومنصور النّمرى وأبو الغول الطّهوى، وله يذكر عقده العهد لابنيه الأمين والمأمون :

بنيت لعبد الله بعد محمّد ...ذرا قبّة الإسلام فاخضرّ عودها

هما طنباها–بارك الله فيهما– ...وأنت–أمير المؤمنين–عمودها

الهجاء:

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن شعر الهجاء المنبعث عن العصبيات القبلية خفت حدّته فى هذا العصر، حتى كاد يتلاشى، إلا بقايا قليلة تمثلت فى نقائض ابن قنبر ومسلم بن الوليد، كما تمثلت فى نقائض دعبل وأبى سعد المخزومى، ومرجع ذلك إلى تطور واسع فى الحياة، جعل الفخر الجنسى يحل محل الفخر القبلى، مما دفع إلى ظهور الشعوبية، وحقّا بقيت أسراب من هذا الفخر عند القبائل ومواليها، على نحو ما نجد عند بكر بن النطاح الحنفى فى مثل قوله مفتخرا بقبيلته بكر:

ومن يفتقر منا يعش بحسامه ...ومن يفتقر من سائر الناس يسأل

وكان أبو نواس–كما مرّ بنا–يفتخر بمواليه القحطانيين افتخارا حادّا، ولكن الدولة كانت له ولبكر وأمثالهما بالمرصاد فقد حبس الرشيد أبا نواس بسبب إحيائه لهذه العصبية, وقد ذكرنا قبلا تهاجى حماد عجرد وبشار كانت فى حماد رعونة شديدة جعلته يتبادل الهجاء حتى مع أصدقائه مثل مطيع بن إياس، وكان مبعث تهاجيهما تنافسهما على بعض القيان. ولعل شاعرا لم يهج فى هذا العصر كما هجى أبان بن عبد الحميد، وقد عرضنا لتهاجيه مع أبى نواس، وممن أكثر من تبادل الهجاء معه المعذّل بن غيلان، وفيه يقول :

صحّفت أمّك إذ سمّ ...تك بالمهد أبانا

قد علمنا ما أرادت ...لم ترد إلا أتانا

صيّرت باء مكان التّ ...اء والله عيانا

قطع الله وشيكا ...من مسمّيك اللّسانا

وكان أبو نواس كثير التعابث فأكثر من هجاء زملائه، وسلقوه بألسنة حداد، وفى مقدمتهم الفضل بن عبد الصمد الرقاشى، وكان كثيرا ما يهجوه بأنه ليس عربيّا وأنه دعىّ فى ولائه لبنى سعد العشيرة القحطانيين، مما جعله يرد عليه بمثل قوله :

وجدنا الفضل أبعد من رقاش ...من الأتن ادّعت فيها الفيول

وجدنا الفضل أكرم من رقاش ...لأن الفضل مولاه الرسول

يشير بذلك إلى قول الرسول ﷺ: «أنا مولى من لا مولى له».

قد مرّ بنا تهاجى أبى العتاهية ووالبة، وكيف انتصر عليه أبو العتاهية انتصارا حاسما حتى فرّ منه راجعا إلى الكوفة وخمل ذكره. واصطدم أبو العتاهية بسلم الخاسر، فتبادلا الهجاء على نحو ما صورنا ذلك فى ترجمتنا لأولهما، وكان سلم يرميه بأنه كاذب فى زهده ويرميه أبو العتاهية بشحّ نفسه وما يجره ذلك عليه من الذل. وممن اصطدم به مروان بن أبى حفصة وأبو الشمقمق وشاعر يسمى الجنّىّ وله يقول :

غدا اللّؤم يبغى مطرحا لرحاله ... فنقّب فى برّ البلاد وفى البحر

فلما أتى مروان خيّم عنده ... وقال رضينا بالمقام إلى الحشر

وليست لمروان على العرس غيرة ... ولكنّ مروانا يغار على القدر

وكان دعبل كثير الهجاء لكل من يظن أنه ارتفع على مرتبته من الشعراء حتى أستاذه مسلم بن الوليد لم يسلم منه، وربما كان أهمّ شاعر حسده أبا تمام، حتى كان لا يكتفى بهجائه، بل يدعى عليه أنه سرق قصائد برمتها من الشعراء السابقين وفيه يقول :

أدعبل إن تطاولت الليالى ...عليك فإن شعرى سمّ ساعه

وما وفد المشيب عليك إلا ...بأخلاق الدناءة والوضاعه

ووجهك إن رضيت به نديما ...فأنت نسيج وحدك فى الرّقاعه

ولو بدّلته وجها بوجه ...لما صلّيت يوما فى جماعه

الغزل:

كثر الغزل فى هذا العصر كثرة مفرطة، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عنوا بالنظم فيه، وهى عناية أعدّته لكى يزدهر ازدهارا واسعا، إذ تداوله أفذاذ الشعراء، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد فى المعانى القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة. وقد مضوا يتسعون بكل صوره القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة، فقد استبقوا هذا الوصف، وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضرى المرهف، على نحو ما مرّ بنا فى الفصل الرابع.

وقد مضى الغزل يجرى فى نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بنى أمية، ونقصد تيارى الغزل الصريح والغزل العفيف، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفا، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات ورروميات، إماء وقيان من كل جنس، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويشعن فيها كثيرا من صور التحلل الخلقى، مستبدات بمكان الحرائر القديم من الشعراء..

وكان يجرى بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقا شديدا بالقياس إلى عصر بنى أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادى الحجاز وحتى تجرى أسراب منه فى مكة عند أمثال عبد الرحمن الجشمىّ الملقب بالقسّ لنسكه وفى المدينة عند أمثال عروة بن أذينة. ومن أعلامه فى البوادى قيس بن ذريح وجميل بن معمر العذرى، حيث نجد الحب النقى الطاهر الذى يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه، حتى ليصبح ضربا من الهيام القوى الحادّ الذى يدفع الشاعر إلى التغنى بمحبوبته فى شعر عذب لا يخدش حياء، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذى لا ينتهى. وطبيعى أن يضعف هذا التيار فى العصر العباسى الأول الذى قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر، ومع ذلك فقد بقيت له بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجوارى ثم بعن وضرب بينهم وبينهن حجاب صفيق، فعاشوا يتعذبون بالحب، وعاش الحب فى قلوبهم قويّا حادّا، ومن خير من يصور ذلك على بن أديم الكوفى الذى أحب جارية تسمى «منهلة» منذ صغرها، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين، فطار لبه، وبكاها بكاء حارّا بمثل قوله:

صاحوا الرحيل وحثّنى صحبى ...قالوا الرواح فطيّروا لبّى

لا صبر لى عند الفراق على ...فقد الحبيب ولوعة الحبّ

ويقول أبو الفرج: «له حديث طويل معها فى كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما، فيه ذكر قصصهما وقتا وقتا وما قال فيها من الأشعار، وأمرهما متعالم عند العامة» وفيها يقول :

يا نصب عينى لا أرى ...حيث التفتّ سواك شيّا

إنى لميت إن صدد ...ت وإن وصلت رجعت حيّا

وعلى شاكلته محمد بن أمية، وكان يهوى جارية تسمى خداع رآها تغنّى ببعض دور النخاسة، فشغف بها شغفا شديدا واتصلت زياراته لها، وبادلته حبّا بحب، ولقيته، ولكنها ظلت تدافعه عن

نفسها، وكثيرا ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره. وهو يقول لها دائما إنى أحبك إنى أنتظرك، من مثل قوله:

ربّ وعد منك لا أنساه لى ...أوجب الشكر وإن لم تفعلى

أقطع الدهر بظنّ حسن ...وأجلّى غمرة ما تنجلى

كلما أمّلت يوما صالحا ...عرض المكروه لى فى أملى

وأرى الأيام لا تدنى الذى ...أرتجى منك وتدنى أجلى

وبينما هو يمنى نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدى. فحجبت عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلة. واستقر حبها فى قلبه وملك عليه كل شئ من أمره، فمضى يتغبى بها طويلا، وكان خلاّنه يلومونه ويقولون له: إنها تبخل عليك بودّها، فدعها إلى غيرها، فينشدهم مثل قوله:

أأن حجبت عنى أجود لغيرها ...بودّى وهل يغرى المحبّ سوى البخل

أسرّ بأن قالوا تضنّ بودّها ...عليك ومن ذا سرّ بالبخل من قبلى

إن الغزل العذرى فى العصر العباسى الأول قد أخذ يضيق مجراه. لأنه لا يبلغ من التأثير فى النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموى، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن، فإذا هو يجرى فيه التكلف ولا يكاد يؤثر فى العاطفة والشعور إلا قليلا.

على أنه من الخطأ أن نصع حدّا فاصلا فى هذا العصربين **الغزل العفيف والغزل الصريح** فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقّرون، والذين يعبرون عن الحب الجسدى حب الغرائز الذى لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرّح تجعلهم يقتربون أحيانا من أصحاب الحب العفيف، واقرأ فى بشار مثلا فستجد عنده كثيرا من الغزل الآثم، وستجد بجانبه غزلا، فيه لوعة. وفيه ألم وسهاد، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام، على نحو ما يلقانا فى أشعاره لصاحبته عبدة، ومثله أبو نواس فى أشعاره لجنان جارية الثقفين، وقد ظلت تحلق بعيدا عنه وراء السحب. والحب يضنيه ويبرّح به، ونضرب مثلا من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحيانا يستأثر بكل ما فى قلوبهم من هوى وعاطفة، وكيف كانوا يتعمقون فى دقائقه تعمقا يفضى إلى كثير من السعة والجمال، وهو هذه القطعة التى أنشدها صاحب الأغانى لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز، وكان خليعا ماجنا فى أول أمره، وفيها يقول لصاحبة له :

أحبّك حبّين: لى واحد ...وآخر أنّك أهل لذاك

فأما الذى هو حبّ الطّباع ...فشئ خصصت به عن سواك

وأما الذى هو حبّ الجمال ...فلست أرى ذاك حتى أراك

ولست أمنّ بهذا عليك ...لك المنّ فى ذا وهذا وذاك

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلا قليلا على هذه القطعة، فأصبحت أمّا للشعر الصوفى كله على نحو ما سنرى فى حديثنا عن شعراء الزهد. وفى الأغانى حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه، كانت تجرى على ألسنة المجان وأشباههم.

وظاهرة خامسة تقترن بالجوارى اللائى كان ينظم فيهن الشعراء، وذلك أن كثيرا منهن كن مثقفات يحسنّ صوغ الشعر ونظمه، فكان الشعراء يراسلونهن، وكانوا أحيانا يفضون إليهن ويتطارحون معهن شعر الغزل. ومن أشهرهن فى هذا الباب عريب جارية المأمون ومتيم جارية على بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز فى آخر كتابه «طبقات الشعراء» فصولا لطائفة منهن، على رأسهن عنان جارية الناطفى, ويروى بعض محاوراتها مع أبى نواس، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفى مولاها قد ضربها وهى تبكى فقال:

بكت عنان فجرى دمعها ...كالدرّ قد توبع فى خيطه

فقالت، والعبرة فى حلقها:

فليت من يضربها ظالما ...تجفّ يمناه على سوطه

ويروى ابن الجراح أن شخصا وجد بيتا فى كتاب، أعجبه، فطلب من يجيزه وعزّ عليه الطلب، فلجأ إليها، وأنشدها البيت:

وما زال يشكو الحب حتى سمعته ...تنفّس من أحشائه أو تكلّما

فما لبثت أن قالت:

ويبكى فأبكى رحمة لبكائه ...إذا ما بكى دمعا بكيت له دما

المصادر والمراجع:

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الاول : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.

- تاريخ الادب العربي في العصر العباسي الثاني : د. شوقي ضيف ، دار المعارف – الاسكندرية ، ١٩٨٦.
- الادب العربي في العصر العباسي : د. ناظم رشيد ، دار الكتب الوطنية – العراق ، ١٩٩٠.
- تاريخ الادب العربي : كارل بروكلمان ، نقله الى العربية : عبد الحليم النجار ، دار المعارف – الاسكندرية ، (د.ت.)
- تاريخ الأدب العربي : د.عمر فروخ ، دار العلم للملايين – بيروت ، ط٤ ، ١٩٨١.
- ديوان الشاعر المتنبي .
- ديوان الشاعر ابي تمام .
- ديوان الشاعر البحتري .
- ديوان الشاعر ابي نواس .
- ديوان الشاعر العباس بن الاحنف .
- ديوان الشاعر الشريف الرضي .
- ديوان الشاعر بشار بن برد .
- ديوان الشاعر ابن الرومي .